مقدمة

منذ وجد الإنسان على سطح الأرض فى صورته الواعية ، وحركته الدائمة لا تتوقف باتجاه الأمام بغض النظر عما اعتراها من تعثر من انحراف فى هذه الفترة أو تلك وفى ذلك القطاع أو غيره ، وللحركة – كل الحركة – ما لم تقع فى نطاق قانون معين تحاكم وتقيم من خلاله ، فهى شىء آخر ولو كان ظاهرها يضعها فى صورة الحركة .

ولحظات الانحراف فى تاريخ الإنسان رغم امتداد بعض منها إلى نصف قرن مثلاً إلا أنها فى الواقع ما هى إلا لحظات إذا ما قيست بحساب الزمن فى تاريخ البشرية ، لحظات الانحراف هذه هى الفترة التى حكم فيها الطغاة ..

فمن هو الطاغى ، وما تعريف الطغيان ، والواقع أن وجهات النظر تتعارض وتتناقض وخطورة الموضوع تكمن فى :

* **أولاً** : قد يحدث تطور ما فى ظل حكم الطاغية ، وهنا يصعب القول بأن الطغيان تيار عكسى مضاد لحركة التاريخ .

* **ثانيا** : قد يكون الطاغية رغم طغيانه واستخدام الكثير من أساليب الانتهازية فى الحكم محبوبًا من شعبه ، على الأقل الفئات

التى استفادت خلال تواجده فى السلطة وهنا يصعب القول بأن الطاغية مكروه من شعبه ملعون من الإنسانية ولا أحد يترحم على أيامه .

* ثالثًا : قد يكون الطاغية وحكمه ضرورة تاريخية تفرضها ظروف المجتمع وبالذات فى دول العالم الثالث ، حيث الأمية تسيطر وميراث الاستعمار ، وعدم تواجد مؤسسات للحكم وظهور فكرة البطل والزعيم فى هذه المجتمعات تصبح الأمل الذى تبحث عنه الجماهير ويتمسك به الرأى العام فى هذه البلدان ، ويكون هنا الحاكم حاكما مطلقًا مستنير الاتجاه ولكنه وفقًا للمعايير التقليدية لتعريف الطاغية هو بحق طاغية .

* رابعًا : قد يأتى الطاغية بعد فترة من العبث والفوضى والاستهتار بحقوق الشعب من جانب مؤسسات صورية للحكم .

ويظل السؤال الحائر ما هى أبعاد تحديد فكرة ومفهوم الطغيان ؟

ويهمنا أن نفهم من البداية بعض البديهات :

أن الإصرار الجماهيرى الواعى على الانتصار للفكر الديمقراطى ، هو صمام الأمن الوحيد ضد الجنوح نحو الديكتاتورية ، فالإرادة الحرة لشعب من الشعوب هى الضمان لتحقيق إنسانية الإنسان بتجسيد حريته السياسية والاجتماعية وشرعية البقاء فى ظل حرية

الكلمة ، ليس ترفًا يسعى إليه المثقفون وحدهم ، وذلك لأن الإرادة الجماهيرية الأصيلة بعمق التاريخ ، واتساعه ما هى إلا معركة المواطن العادى لتحقيق التقدم والتطور ، والإسهام فى بناء الحضارة من خلال توفير لقمة العيش له ، وحمايته من كل القوانين الجائرة وتمتعه بحقوقه كإنسان له حق الاختيار فى الحياة التى يحياها .

وليس بخاف على أحد أن شعوب العالم ذات المستوى الاقتصادى الواحد تكاد تتشابه فى بعض الخصائص والسمات ، ولكن من المؤكد أن لكل شعب سيكولوجيته وشخصيته من خلال الإطار التاريخى الذى مر به .

وتزاوج الحضارات ومزج الثقافات ، قد يغير من بعض الصفات لشعب من الشعوب ، ولكن يظل القوام الأساسى لتحليل شخصية هذه الأمة نابعًا من تراثها وتجربتها الحضارية .

ومن هنا فإن الشعوب قد تختلف فى تحديد من هو الحاكم الطاغية ، وقد يكون الطغيان معنى الحكم الفردى وقد يكون التمسك بالسلطة مهما كانت الضحايا وقد يكون معنى الطغيان الحكم بدون مؤسسات وبدون برلمان أو بلا دستور لكن من المؤكد أن الطاغية هو الذى يكمم الأفواه ويصادر الحريات ، وتستغل السلطة لصالحه .

الطاغية .. وحركة التاريخ :

إن الطاغية فى حركة التاريخ عمل سلبى يجر الشعوب إلى الوراء ويقف ضد التقدم الإنسانى ، وينشر الأوبئة الفكرية والانحرافات ويخلق التزييف ويبعث على النفاق .

ولكى يتفق كلامنا مع المنهج العلمى ليمكننا معالجة الموقف بأمانة تاريخية لابد من تحديد الإطار الذى يمكن فى ضوئه تعريف الطاغية .

١ – بعد تقويم فترة حكمه يمكن الحكم على ممارساته وسياسته بأنها لم تؤد إلى تطور المجتمع تطورًا حقيقيًا ، وإلى إعلاء شأن الإنسان وتحليه بمجموعة من القيم الأخلاقية ..

٢ – إلى أى مدى ارتفع مستوى المعيشة خلال فترة تواجده فى السلطة .

٣ – إلى أى مدى تمتعت الصحافة بحريتها ومارست المؤسسات الديمقراطية دورها بأمانة ولصالح الشعب الذى تمثله .

٤ – وأخيرًا ما هو التغير الذى حدث فى عهده بالنسبة لقيمة الإنسان الاجتماعية ؟ ... هل تعرض لمصادرة حريته وسجن أفكاره ؟ ، ما هى صورة التعذيب الذى تعرض له ؟ ، وكم من الظلم رقع فى عهده ؟ .

وفى ضوء هذا المنهج يمكن أن نطلق على ستالين طاغية ، وعلى هتلر طاغية ، وعلى موسولينى طاغية ، اجتمع لثلاثتهم صفتان هما لعنة شعوبهم التى تلحقهم فى مماتهم بصوت عال كما لحقتهم بصوت منخفض فى حياتهم .

وفى ضوء هذا المنهج أيضًا أمكن القول بأن « فرانكو » كان طاغية من نوع خاص وعيدى أمين طاغية أقل شأنًا وروبسبير زعيم الثورة الفرنسية فى بعض مراحلها يمثل صورة الطغيان المتعطش لسفك الدماء ، إن كلمة الطاغية مرادفة لكلمة الديكتاتور ، وكل طاغية يستند إلى فلسفة وعقيدة تسانده وفى ضوئها يرسم خطواته ويحدد استراتيجيته .

غاية الطاغية :

إن شرف الكلمة ومسئوليتها بالنسبة للملتزم بها تدفعنى إلى التأكيد – الآن ودائمًا – أن أى طرح لموضوعات طغاة التاريخ لابد وأن يقع بين ثلاثة حدود :

- **الأول** : ما هى الغاية التى كان يسعى إليها الطاغية ؟
- **الثانى** : ما هو الدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية ؟
- **الثالث** : ما هى العوامل التى تتحقق بها هذه الغاية ؟

والملاحظ أن الغاية التى كان يسعى لها - ولازال - كل طغاة التاريخ هو بقاؤهم الدائم فى الحكم واحتفاظهم بالسلطة مدى الحياة ، لا يتركون فرصة لغيرهم ويحاربون كل من يشعرون بأنهم يطمعون للوصول إلى عروشهم ، والدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية اعتقاد الطغاة أنهم من طينة غير طينة البشر ، وأن عليهم رسالة يجب أن يؤدوها وأنهم ملهمون من الله ، ويحملون عبء مسئولية القيادة ، وفى ظل هذا الجنون من العظمة يظنون أنفسهم العبقرية الوحيدة ويعتقدون أن ذكاءهم فوق كل ذكاء وغيرهم هم الأغبياء ، من خلال الكثير من العقد النفسية التى تسيطر على اللاوعى داخلهم ، تتضخم ذاتهم ويصبح هذا الدافع هو الذى فى ضوئه يعلنون أن مهامهم لم تنته بعد وأن عليهم إنجازات لابد من إتمامها دون إدراك أن هذه الإنجازات فقدت محتواها .

وبقيت فى هذه المقدمة ثلاث مسائل هى أقرب إلى الأسئلة من أى شىء آخر : هل علاقة السلطة بالمواطن هى التى تحدد أبعاد دائرة الطغيان والإجابة - نعم ... ذلك أن وجود الإنسان - خليفة الله فى الأرض - هو الذى يعطى الوجود معناه ومن هنا كان تقويم أى نظام حكم بما يعود على هذا الإنسان من تطور وتقدم .

والثانى : هل الأحكام التى سوف نصدرها قاطعة ، والواقع أن المؤرخ كالقاضى يحكم وفقًا لما قدم له من مستندات ولا يمكن

لقاض أن يخالف ويحكم من خلال أحاسيسه أو عواطفه ، وهنا يكون الاعتماد على الوثائق مهمة ضرورية .

أما الثالث فهو : لماذا تثار مثل هذه الموضوعات على صفحات الصحف وما الذى يعود علينا من طرح السيرة الذاتية لشخص ويوضع فى قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ ولعل الإجابة على ذلك ليس فقط فيما يمكن أن يستفاد من أخطاء الماضى ، ولكن لأن الحاضر بكل ما يحتويه ما هو إلا موجات متدافعة من بحر الماضى ، وكذلك ليس المستقبل بكل ما سوف يحتويه سوى موجات متداخلة من بحر الحاضر .. وهكذا كان التاريخ وسيظل حلقات متداخلة تصنع سلسلة واحدة ، فإذا سقطت واحدة من هذه الحلقات ضاعت حبات السلسلة وانفرط عقدها .. وبضياع السلسلة يضيع التاريخ .

جرس إنذار :

إن دراسة طغاة التاريخ ليست إساءة لشعوب رضخت – رغم أنفها مكممة أفواهها لنزعات الطاغية – ولكنها عبرة تتعظ منها الأجيال وجرس إنذار للشعوب وصرخة تتعالى من كافة أنحاء المعمورة أن انتبهوا ، قبل أن يغمرنا الطوفان .

وبقى أخيرًا أن أقول : إننى لا أريد أن تتحول ساحة هذه المقدمة الصغيرة إلى سرادق للعزاء للشعوب التى اكتوت بنيران الديكتاتورية

من جراء حكم الطغاة ، كما أنها ليست محاكمة تاريخية لهم لنبش الماضى وإثارة المرارة ولكنها فرصة لطرد الغربة من حدائق الأحزان ، وذكرى نرجو ألا تنطوى أو تذوب من مخيلة الجماهير حتى لا تتعثر مرة أخرى ، وحتى لا تساهم فى صناعة الأصنام لتعبدها ثم تقضى بقية عمرها تشكو آلامها من عذاب الضمير من تلك الآلهة ، التى كانت هى السبب فى تواجدها ، ولم تستطع أن تقضى عليها إلا بعد أن دفعت الثمن غاليا .

أ . د . محمود متولى